الاتجاهات النقدية الحديثة

بعد أن تطرقنا في المحاور السابقة الى تلك النظريات الاجتماعية التي تعكس واقعا اجتماعيا معينا ووفق لتوجه فكري وأيديولوجي معين كذلك، سنتطرق بايجاز لبعض الاتجاهات النقدية التي تصدت لمثل تلك النظريات والتي حاولت أن تعكس واقعا اجتماعيا مغايرا. وللعلم فان مثل هذه التيارات النقدية لم تظهر في مجتمع مغاير لذلك الذي انتج النظريات الكلاسيكية، والمرتبطة أساسا بمشكلة النظام. وجاء النقد متركزا في كون المجتمعات الغربية ببنائها القديم وبنظرياتها المحافظة لم تستطع أن تحقق الاستقرار والاستمرار الذي تدعيه، وظهرت بداخلها صراعات فكرية وبنائية لم تقدر على استيعابها.

ولقد ارتبطت الاتجاهات النقدية بما يعرف بحركة اليسار الجديد، الذي ارتبط تاريخه هو أيضا بالحركات الاجتماعية، كارتباطه بحركة النقد الاجتماعي الواسعة النطاق والموجهة للنظام الرأسمالي. وعموما يمكننا القول بأن نشاط اليسار الجديد قد تمثل في تلك الحركات الاجتماعية المتوالية منذ الخمسينيات والتي بلغت ذروتها في انتفاضة الطلبة في فرنسا سنة 1968. واذا كانت هذه الموجة النقدية قد مست جميع منحى الحياة الفكرية والمادية... فامن علم الاجتماع باعتباره يدرس الانسان في المجتمع قد عرف مبادرات نقدية. ويعتبر **رايت ميلز** واحدا من الذين استطاعوا أن يرتفعوا من مستوى النقد الاجتماعي بمفهومه الواسع إلى مستوى النقد السوسيولوجي (العلم- اجتماعي). وإذا كان رايت ميلز بعد واحدا من ممثلي الاتجاه النقدي المبكر في علم الاجتماع، فإن غيره ممن جاءوا بعده كثيرون لعل أبرزهم **غولدنز**، **توم بوتومور** و**جون ركس**. وسنتتبع أعمال كل من ميلز وغولدنر. ثم نتطرق على نوع آخر من الاتجاهات النقدية (النقد من الخارج) والذي تمثله **مدرسة فراكفورت**.

أولا- رايت ميلز: برز رايت ميلز خلال أربعينيات وخمسينيات هذا القرن كرمز لمعاضة راديكالية لتلك الممارسات السوسيولوجية التي كانت تسود تلك الفترة، فإذا كان يعد جزءا من

تاريخ علم الاجتماع الغربي، فإنه يعتبر نقطة انقطاع هامة في مسار الفكر الاجتماعي الذي ظل أسيرا لتلك النزعة المحافظة التي تميل للحفاظ على الأوضاع الراهنة والوقوف أمام أية تغيرات بنائية شاملة. ولقد لقيت أفكار رايت ميلز في البداية معارضة شديدة من قبل علماء الاجتماع، إلا أنها ما لبثت أن حظيت بقبوا واسع مع مطلع الستينيات، وبلغت أوجها في عقد السبعينيات. ولقد عالج ميلز الكثير من المواضيع التي حظيت باهتمام واسع من علماء الاجتماع ومن ذلك مثلا: الصفوة السياسية، قادة العمل والطبقة الوسطى، والتي أصبحت تمثل جزءا أساسيا من التراث السوسيولوجي الأمريكي. ولعل مفهومه الموسوم" الخيال السوسيولوجي SOCIOLOGIAL IMMAGINATION " قد ذاع صيته إلى أبعد الحدود، ونال قوة نظرية ونقدية هائلة حتى أصبح يعد من المفاهيم السوسيولوجية.

ولقد عبر رايت ميلز في مؤلفه الخيال السوسيولوجي عن اتجاه نقدي في مواجهة تيار فكري عارم يتمثل في الاتجاه الوظيفي المحافظ. وحسب السيد الحسيني " فإن ميلز قد سبح ضد التيار السوسيولوجي الأمريكي المحافظ التي اشتد خلال خمسينيات هذا القرن" وربما لهذا السبب وحده نجد ميلز واحدا من أهم مؤسسي النزعة الراديكالية في علم الاجتماع الحديث " (الحسني، 1985، 183).

ومن خلال خياله السوسيولوجي كان رايت ميلز يهدف الى تقديم نقد قوي ومتميز للاتجاهات السائدة في الفكر السوسيولوجي، وبالمقابل طرح مخطط طموح للعلوم الاجتماعية بمثابة بديل نظري يمكنها من استيعاب العناصر البنائية والنظامية الأساسية التي تؤلف الواقع الاجتماعي المعاصر، حيث يساعد ذلك عالم الاجتماع من تأمل العصر الفكري الذي يعيشه، والوقوف على أهم المشكلات التي يعاني منها الانسان، والاسهام بدور حقيقي في إقامة مجتمع إنساني حر.

انطلق رايت ميلز بشنه هجوما عنيفا على ما أسماه بالنظرية الكبرى GRAND THEORY الأمبريقية المجردة ABSTRACTED EMPIRICISM ففي اعتقاده أن أصحاب النظريات الكبرى يقدمون أطرا فكرية تصورية بالغة التجريد، مبتعدين بذلك عن محاولة فهم المشكلات الواقعية، "لقد قصد ميلز بنقده لنظرية بارسونز توجيه اللوم لأصحاب النظريات

السوسيولوجية الكبرى الذين يقبعون في أبراجهم العاجية مفضلين إياها على الهبوط الى الواقع التاريخي البنائي للمجتمعات الإنسانية، وفي ذلك مطالبة صريحة لعلماء الاجتماع بضرورة العودة الى التاريخ الذي يعد بحق رصيدا فكريا يجب أن تعتمد عليه النظرية السوسيولوجية إذا ما أرادت أن تفهم المجتمع الإنساني فهما تفسيريا مقارنا" (الحسيني، 1985، 185).

هذا "وتشير كثير من الدراسات التي تناولت أفكار ميلز بالدراسة والتحليل إلى أن هذا العالم كان يشعر بأزمة إنحطاط الفكر السوسيولوجي وذلك بسبب سيطرة الفكر الكلاسيكي المحافظ على كل مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية في المجتمع الغربي، لذا فقد اهتم هو وغيره من رجال الفكر الراديكالي برصد أزمة الواقع السياسي والاجتماعي، فالى جانب البطالة المتزايدة والتفاوت الاجتماعي نجد الديمقراطية الزائفة ومحاولات الفئات الحاكمة تزييف الوعي الاجتماعي، ليس هذا فقط بل ان الأمر أصبح أكثر خطورة نظرا لخضوع رجال الفكر السوسيولوجي للمؤسسات الحاكمة وأساليب السيطرة التي تمارسها على أفراد المجتمع، كما أدى إلى عزلة هؤلاء الرجال عن فهم ميكانزمات وآليات النظام الاجتماعي السائد، وفي هذا الوقت كان علماء الاجتماع يتشدقون بمفهومات مثل " الاجماع القيمي" التي ابتدعها بارسونز والوظيفة الكلية التي صكها " دافيز". وكان أخصائيو التدرج العلاقات العنصرية يبررون استغلال الملونين ويصرفون الناس عن الاهتمام بأسبابه الحقيقية مدعين أن أسباب التعصب ترجع إلى عوامل سيكولوجية يمكن معالجتها فيسود السلام الاجتماعي" .

في ظل هذا المناخ السياسي والاجتماعي المتأزم ظهرت الحركة النقدية للنظام الاجتماعي الأمريكي، كما شملت رفض الرؤى الكلاسيكية السائدة والكشف عن المضمون الأيديولوجي لها، وتعدت ذلك لتركز على دور علم الاجتماع في تجاوز الأزمة وتقديم تصورات بديلة للأنظمة الاجتماعية السائدة.

في مرحلة الأزمة هذه ظهر " الخيال السوسيولوجي" كفكر تصوري وأداة تحليلية لفهم مشكلات الانسان المعاصر في إطار الكلية التاريخية ، وذلك كرد فعل لأزمة الرؤية الكلاسيكية في الفكر السوسيولوجي الغربي. ومن هنا كانت انتقادات ميلز الصارخ للفكر

التقليدي البعيد تماما – من وجهة نظره- عن الواقع الاجتماعي- التاريخي لهذه المجتمعات.
وتتلخص معالم الفكر النقدي لرايت ميلز من خلال خياله السوسيولوجي في النقاط التالية:

1- يرى ميلز أن ضعف علم الاجتماع الكلاسيكي منذ نشأته يعود بالدرجة الأولى إلى تجاهله البناء التاريخي في تحليل المشكلات الاجتماعية وأزمات الواقع.
2- من خلال هذه الرؤية للفكر السوسيولوجيي قدم ميلز انتقادات عنيفة للنزعة الأمبريقية التجزيئية التي سادت العلوم الاجتماعية، والتي تغفل دور النظرية في توجيه البحث الاجتماعي، حيث تهتم بجمع بيانات متعددة ومجزأة ليس بينها أي رابطة. لذلك تأتي نتائج هذه الدراسات تعميمية إلى حد كبير وبعيدة كل البعد عن الواقع التاريخي-البنائي للمجتمع الإنساني.
3- من جهة أخرى يدعو ميلز الى رفض الرؤية الوضعية فيس علم الاجتماع، والتخلص من الأفكار المجردة التي يعتمدها العلماء في نظرياتهم التضخيمية والتي تعرف باسم النظريات الكبرى.
4- كما عارض ميلز الفكر السوسيولوجي المحافظ، لأنه يتجاهل قضايا التناقض والصراع والتغير الاجتماعي، ففكرة التوازن أو التناغم أو الانسجام التي تطبع الاتجاه المحافظ قد افقدت علم الاجتماع الرؤية التاريخية للتغير الاجتماعي بل أدت الى تحويل العلم الاجتماعي إلى معرفة شكلية في علاقة الانسان بالمجتمع.
5- وفي مناقشته لقضية غياب الوعي وتزييفه في المجتمع الغربي يشن ميلز هجوما عنيفا على المؤسسة الحاكمة ورجال العلم الاجتماعي خاصة في المجتمع الأمريكي، أين انتشرت ظاهرة اغتراب الإنسان عن حياته وعن عمله مما أدى إلى ضعف قدراته الإبداعية وسيادة المظاهر السلبية مثل اللامبالاة السياسية والاجتماعية وتدهور المستوى الأخلاقي وشعور الفرد بالعزلة وعدم التوافق مع الواقع الاجتماعي، وقد ساعد على ذلك أن علماء الاجتماع قد ارتبطوا بالمؤسسة الحاكمة بل أنهم أصبحوا " حكاما بلا رداء" يسيطرون على عقول الناس ويساعدون على تزييف وعييهم، متجاهلين لدورهم الحقيقي في الكشف عن الوعي الزائف

أو البحث في الواقع عن مشكلات الانسان المعاصر، تلك المشكلات التي تتطلب رفضا لواقع متناقض ومأزوم.

ولهذا يبقى الخيال السوسيولوجي من وجهة نظر ميلز هو الحل الأمثل للتوافق الحقيقي بين المشكلات الخاصة والمشكلات العامة، بمعنى التوافق بين الفرد والمجتمع، فلا جدال في أن الخيال السوسيولوجي ينطلق من رؤية نقدية واضحة للاتجاهات الكلاسيكية في الفكر الاجتماعي الغربي، أي أنه نقد للنظرية الغربية وللمجتمع الذي وجدت فيه من الداخل، ولم يقتصر ميلز على نقد الفكر الكلاسيكي المحافظ مثل فكر تالكوت بارسونز، بل تعداه إلى نقد الأفكار الماركسية التي يغلب عليها الطابع المتزمت. وربما لهذا السبب يعد رايت ميلز من رواد الاتجاه النقدي الجديد الذي ظهر في علم الاجتماع في الستينيات من هذا القرن.

فإذا كان قد اعتبر ماركس –خصوصا في كتاباته المبكرة- واحدا من أبرز مؤسسي النظرية الاجتماعية، إلا أنه (أي ميلز) قد تردد كثيرا وطويلا قبل أن يدخل في حوار مع الماركسية، محاولا إعادة النظر فيها من خلال نبذه للفكر المتزمت الذي يلوي أعناق الحقائق التاريخية حتى تتماشى مع التصورات العامة. والجدير بالذكر أن موقف ميلز من الماركسية لا يخلو من الازدواجية، فبالرغم من أن تصوره للبناء الاجتماعي يحمل " نكهة ماركسية"، إلا أنه قد مال ولو بدرجة قليلة نحو تحليلات ماكس فيبر، خصوصا عند معالجته للبناء الطبقي.

ويطرح ميلز الخيال السوسيولوجي كمشروع أخلاقي طموح أمام علماء الاجتماع يجدون فيه وسيلة تخليص علم الاجتماع من أزمة الاغتراب، اغتراب أفكارهم عن الواقعية التاريخية واغترابهم هم أنفسهم عن دور العلم الذي ينتمون إليه؛ فالخيال السوسيولوجي هو أحد الوسائل الأساسية اربط النظرية بالواقع، ويتجلى دوره أكثر في المهام التالية:

1- توجيه الفكر السوسيولوجي نحو دراسة الواقع من رؤية تاريخية بنائية شاملة تلغي التجزيئية والأمبريقية والتجريدية.

2- مساعدة عالم الاجتماع في فهم العناصر البنائية –التاريخية حيث تعطيه الرؤية الحقيقية، وليس المزيفة عن مشكلات العصر، وذلك من خلال تأمل العصر الفكري الذي يعيشه

والوقوف على أهم المشكلات التي يعاني منها الانسان الغربي، مما يسهم في ترسيخ قيم إنسانية حرة.

3- يساعد الخيال السوسيولوجي على كشف الدعاوي الفكرية المزيفة كتلك التي سادت الفكر الاجتماعي خلال خمسينيات هذا القرن، والتي تتعلق بمدى استقلالية الفكر الاجتماعي وارتباطه بالمؤسسة الحاكمة وبرجال السلطة... مما أدى إلى التخلي عن القيم الأخلاقية والعلمية، والعيش في حالة عزلة واغتراب.

4- من خلال الخيال السوسيولوجي يدعو ميلز إلى ضرورة فهم المجتمع والانسان في علاقتهما الجدلية المتبادلة، حيث لا يمكن فهم القضايا الخاصة بمعزل عن القضايا العامة أو الكبرى (حجازي، 1998، 143-149) ففي هذا الصدد نجد يدافع عن فكرة الخصوصية التاريخية وظلك في مواجهةالقوانين العامة الجامدة التي تميل الى اختزال الواقع التاريخي والبنائي. وبطرحه لفكرة الخصوصية التاريخية التي تعني ما أسماه " السير الاجتماعية" يولي عناية خاصة بالأخذ في عين الاعتبار للسياق التاريخي البنائي الذي يساعد في الوقوف على القضايا الكبرى. ويعبر ميلز عن ذلك بقوله: " إذا كان الناس يتمسكون بالمعايير والقيم فيجب ألا ينسوا في نفس الوقت أنهم كانوا سببا في وجودها"؛ ومن هذا التفاعل الديالكاتيكي فإن الانسان يبدو خالقا للمجتمع بقدر ما هو مخلوق يعيش في داخله. وعليه يجب أن يكون الوعي بهذه الحقيقة أساسا لتغير ثقافي يفضي إلى تحول بنائي" (الحسيني، 1985، 198).

ثانيا: إلفن غولدنر والتأمل السوسيولوجي:

اذا كانت فترة الخمسينيات تعد بمثابة حقبة ازدهار بالنسبة للوظيفية، فإنه يمكن اعتبار حقبة السيتنيات بأنها مرحلة مراجعة لها وإعادة النظر فيها، حيث عرفت هذه الفترة ظهور اتجاهات نظرية عديدة من بينها الفنومينولوجية والاثنوميتودولوجية والتأملية، الى جانب المحاولات النقدية العديدة. وهي كلها تعد بمثابة مؤشرات إيجابية على قدرة علم الاجتماع على تقويم مناهجه ومفاهيمه. وتعتبر مبادرة غولدنر من أهم المبادرات التي جاءت

لتقدم نقدا صادقا للنظرية الوظيفية من الداخل، والتي تعرف باسم التأمل السوسيولوجي.

فما هي مضامين هذا المفهوم يا ترى؟

قبل أن ينقضي صيف عام 1970 كان علم الاجتماع الغربي – الأكاديمي- قد شهد انقلابا داخليا خطيرا، قاده عالم الاجتماع الأمريكي الفن غولدنر A. GOULDNER في كتابه الموسوم: الأزمة المقبلة لعلم الاجتماع الغربي THE COMING CRISIS OF WESTERN SOCIOLOGY، وهذا الكتاب ليس نقدا عاما شاملا لعلم الاجتماع فحسب، وانما هو كذلك تحليلا دقيقا للمضامين المنهجية والأيديولوجية للنموذج الوظيفي البارسوني الذي يمثل أكثر النماذج شيوعا وانتشارا في الو.م.أ خصوصا. ولقد شهدت نظرية بارسونز نقدا عنيفا تمثل أعنفها في قضية التساند الوظيفي المطلق كوسيلة لتنظيم العلاقات المتبادلة بين الأجزاء، ويقول غولدنر في هذا الصدد: " إن الطريقة الوحيدة التي يستطيع من خلالها النسق الاجتماعي ضمان السيطرة على الانسان ما هي إلا وسيلة لقتل هذا الانسان" ، وقد مثلت هذه الانتقادات جزءا من انتقادات أعم وأشمل تعلقت بعجز الوظيفية عن تقديم تفسير للتغير الاجتماعي، وعلى الوظيفية في رأي غولدنر إذا أرادت أن تخرج من هذه الحلقة المفرغة التي تدور فيها، فإن عليها التخلي أولا عن افتراضاتها الأساسية وتبني افتراضات أخرى وعلى الأخص تلك التي تستند إليها الماركسية. وفي هذه النقطة بالذات نلمس في انتقادات غولدنر لبارسونز نوعا من الازدواجية، حيث يعتقد بتحوله نحو الماركسية في معالجته لقضية التغير، والتباين والتطور. ففي رأي غولدنر مثلا أن بارسونز في معالجته لقضية التباين قد اقترب كثيرا من تحليل ماركس للتناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، وان كانت قد تمت في إطار تطوري وليس ثوري(الحسيني، 1985، 213)، وإذا كانت انتقادات غولدنر كثيرة ومتشعبة فإنها تهدي الى إعادة قراءة الفكر السوسيولوجي الغربين وذلك من أجل تحرير الانسان من العزلة والاغترابوحتى تصبح هذه القراءة جديرة بهذه المهمة، ابتكر غولدنر فكرة التأمل السوسيولوجي، في محاولة لإيجاد حل للأزمة التي يعرفها علم الاجتماع الحديث من خلال تنمية وعي ذاتي سوسيولوجي لدى علماء الاجتماع.

واذا كان معظم رجال الفكر النقدي ركزوا على ربط النظرية بالواقع إلا أن البعض منهم قد بدأ أساسا بداية "فوقية" بدأت من تحليل أزمة الفكر والتراث وليس أزمة النظام والبناء، صحيح أنهم لم يغفلوا كلية مشكلات الواقع وأزماته كعوامل بنائية –تاريخية- محورية في تشكيل أزمة النسق الفكري ذاته، إلا أن نقطة الانطلاق في تحليلاتهم جاءت في معظمها معبرة عن افتراضات أساسية تنطلق من ضرورة البحث في أزمة التراث الفكري وخاصة السوسيولوجي منه. وضمن هذا المنحى يطرح غولدنر التأمل السوسيولوجي.

يتناول التأمل السوسيولوجي كل ما يهتم به علماء الاجتماع بالفعل وما يرغبون عمله داخل هذا العالم، أما مهمته الأساسية فتتمثل في معرفة هذا العالم المغترب عن عالم الاجتماع، وبالتالي تعميق وعييه الذاتي، وبذلك يصبح التأمل السوسيولوجي – حسب السيد الحسني- ضربا من الراديكالية التي تتجاوز بعلم الاجتماع موقفه الراهن، ويعبر غولدنر عن ذلك قائلا: " التأمل السوسيولوجي يستند بطبيعته الى فهم راديكالي لعلم الاجتماع. أما مصدر هذه الراديكالية فيعود إلى أن معرفة العالم لا تنفصل عن معرفة عالم الاجتماع لنفسه وموقعه داخل العالم الاجتماعي، كما أن راديكالية التأمل السوسيولوجي تتمثل في سعيه لفهم وتحويل العالم المغترب، فضلا عن الاغتراب الذاتي الذي يعانيه عالم الاجتماع، وأخيرا تتمثل هذه الراديكالية في التسليم بحقيقة أن جذور علم الاجتماع يجب ان تصل بعد ذلك الى جهود عالم الاجتماع بوصفه انسانا كليا. وأن القضية التي يجب أن تواجه الباحث في هذا العلم لا تتصل بكيفية إنجاز البحوث بقدر ما تتصل بطبيعة الحياة التي يعيشها" (الحسيني، 1985، 216).

وفوق هذا وذاك، فإن التأمل السوسيولوجي عند غولدنر هو بمثابة تعبير عن آمال نظرية ومنهجية عريضة. فهو لا يتصل فقط بالاعتبارات المنهجية والنظرية المتصلة بعلم الاجتماع، بل يتعلق أيضا بإعادة اكتشاف علماء الاجتماع لأنفسهم على نحو يمكنهم من اكتساب روح إنسانية جديدة. كما أن ممارسة هذا التأمل السوسيولوجي سوف تزداد شيوعا بين علماء الاجتماع حتى يتمكنوا من رؤية معتقداتهم، تماما كما يرون معتقدات الأخرين (الحسيني، 1985، 219).

اذن يطرح غولدنر فكرة التأمل السوسيولوجي أو علم الاجتماع الراديكالي كحل لأزمة الواقع، أو كما يذهب أحمد حجازي، لأزمة الثقافة والعلم فهو القادر على خلق الفكر العقلان الناقد الذي يساعد على الابتكار والابداع. فعلى المفكر –إذن- أن يعزل نفسه عن التيارات المحافظة، تلك التيارات التي التي تزيف الوعي التاريخي للإنسان العادي وللمفكر الاجتماعي. والحل يقدمه غولدنر لعالم الاجتماع من خلال التأمل السوسيولوجي؛ حيث نجد التسليم بأهمية الذات كمصدر مهم للمعرفة الصادقة تلك الذات التي تمثل مصدر القوة في التغيير.

وفي ضوء هذه الأراء التي قدمها غولدنر ضمن مفهومه للتأمل السوسيولوجي، يبدو أنه قد بدأ وظيفيا ناقدا وانتهى الى مصلح اجتماعي مثال، إذ أنه قد تأثر كثيرا بأراء ميرتون، ثم قدم أراءه النقدية في محاولة تجديد علم الاجتماع الأكاديمي والذي أطلق عليه اسم العلم الاجتماعي الواقعي. والحقيقة أن مفهوم غولدنر حول العلم الواقعي يختلف في الكثير عن تحليلات بعض أصحاب الفكر الراديكالي. حيث حيث يرى أنه العلم الاستقرائي RELEXIVE الذي يسعى الى إقامة ظروف إنسانية تفضي بتصحيح الوعي الزائف بالإنسان وبواقعهن ولهذا فإن مهمة علم الاجتماع تتلخص في وضع برامج لتصحيح الواقع (حجازي، 1998، 154).

والخلاصة اننا نتفق مع السيد الحسيني حين يصرح بأن غولدنر قد قدم اسهامات نقدية بارزة في مجال النظرية السوسيولوجة المعاصرة، وطرح بذلك مجموعة من الأفكار والمفاهيم والتصورات التي تلعب أدوارا هاما في تحديد مستقبل هذه النظرية، غير أن البديل النظري الذي طرحه من خلال التأمل السوسيولوجي لا يمثل إضافة جديدة تماما في مجال النظرية الاجتماعية، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار تلك المحاولات الجيدة التي تدخل في إطار التفاعلية الرمزية كالفينومينولوجيا الاجتماعية والاثنوميتودولوجيان والتي مرت معنا سابقا. (للمزيد من التفاصيل، أنظر: أحمد زايد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية).

ثالثا: مدرسة فراكفورت:

لقد تأسست مدرسة فرانكفورت في عشرينيات هذا القرن وتحديدا سنة 1923، حينما أنشئ معهد فرانكفورت للبحوث الاجتماعية بصفته مركزا للبحث الاشتراكي (كان مقررا تسميته معهد الأبحاب الماركسية، لكن تم استبعاد هذه التسمية لأسباب سياسية وأيديولوجية قد تتحجج بها الحكومة الألمانية حينها)، وارتبط المعهد في تعامله مع العديد من المفكرين الذين كانت لهم صلات بالأحزاب الشيوعية والعمالية أو ممن يحملون توجهات ماركسية.

ومع انتشار النازية التي صارت تشكل خطرا على الحياة السياسية والثقافية في ألمانيا (مع صعود الحزب النازي الى الحكم سنة 1933) وجد المعهد نفسه مضطرا لمغادرة ألمانيا، فانتقل بعض أعضائه الى باريس ثم الى سويسرا ومنها الى الو.م.أ حيث أعادوا تشكيل المعهد وأصدروا مجلة له؛ وبوجودهم في أمريكا سنحت لمفكري المعهد الفرصة لمعايشة التناقض في واقع البناء الرأسمالي الغربي الأمريكي، وهذا ما دفعهم إلى إعادة النظر في الماركسية كنظرية غير قادرة على فهم أبعاد الواقع المتغير (حجازي، 1998، 160)، وبعد الحرب العالمية الثانية، عاد معظم أعضائه إلى ألمانيا وتابعوا نشاطهم ضمن جامعة فرانكفورت. وقد بلغ هذا النشاط ذروته في أواخر الخمسينيات والستينيات من هذا القرن، حيث ظهر في هذه الفترة جيل جديد من أتباع هذه المدرسة ولقد اجتذب المعهد الى صفوفه مجموعة من الباحثين البارزين الذين يمثل كل واحد منهم وجهة نظر متميزة كما أن لهم إهتمامات دقيقة ومتباينة(اقتصاد، فلسفة، قانون، علم النفس، أدب ، علم الاجتماع...) وبعد الحرب العالمية الثانية عاد المعهد الى ألمانيا ليواصل نشاطه من جديد الى أن تلاشى وانحل مع بداية السبعينيات، هذا وقد ارتبطت بتلك المدرسة مجموعة من ألمع المفكرين الذين أصبحوا يمثلونها، يأتي في مقدمتهم: تيودور أدورنو THEODOR ADORNO (1903-1969) ماكس هوركهايمر MAX HORKHEIMER (1895-1973) وهربرت ماركيوز HERBERT MARCUSE (1898-1979).

هذا وقد حققت أعمال مدرسة فرانكفورت ذيوعا وانتشارا وتجديدا واضحا من خلال اسهامات جيل الباحثين الذين تألقوا بعد الحرب العالمية الثانية لعل أشهرهم على الاطلاق هو " يورغن هابرماس JURGEN HEBERMAS(1929-).

وحتى يتسنى لنا تقديم صورة واضحة عن المناخ العام الذي تبلورت من خلاله مدرسة فرانكفورت، يجدر بنا القول بأن أزمة علم الاجتماع في الغرب عموما والو.م.أ خصوصا كانت وراء ظهورها، كما يمكن القول أيضا أن أصحاب هذه المدرسة قد تأثرا بكثير من الأحداث السياسية التي عاصروها وبخاصة الثورة الروسية. كما أن لظهور النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا وموقف الطبقة العاملة منهما تأثيرا كبيرا على تصورات هؤلاء المفكرين. كما كان الواقع الاجتماعي للمجتمع الغربي (بالرغم مما حققه من رفاهية) الذي لم يستطع تأمين حياة إنسانية كريمة يتعايش فيها الكل على أساس المساواة الاجتماعية، أثره البالغ في رسم معالم الفكر النقدي لهذه المدرسة (عبد المعطي والهواري، 1986ن 304).

وهناك من المختصين والمهتمين بالتأصيل والتأريخ لنظرية علم الاجتماع عموما والنقد الاجتماعي خصوصا، من يذهب الى الاعتقاد بأنه من الأفضل دراسة النظرية النقدية باعتبارها ظاهرة من ظواهر التاريخ الثقافي الألماني، أكثر من كونها فرعا من فروع علم الاجتماع. بمعنى أن المقولات والقضايا التي تبنتها هذه النظرية تجد أصولها في اتجاهات فكرية خبرها المجتمع الألماني ذاته، فهي من جهة تنهض على الفكر الفلسفي المثالي، الماركسي والتأويلي، ومن جهة أخرى تنهض على التحليل النفسي الذي طوره سيغموند فرويد، كما أن العد النقدي الذي ارتبط بهذه المدرسة يعود الى ذلك النموذج النقدي الذي صاغه ماركس من خلال مؤلف " نقد الاقتصاد السياسي" ، ولو أن التفكير في مفهوم النقد وتاريخه قد ساور هذه المدرسة قبل ظهور كتاب ماركس المشار إليه، ففكرة النقد يمكن اعتبارها نتاجا خالصا لفلسفة التنوير، (حيث سبقت الإشارة لذلك)، كما أن المصطلح في حد ذاتهيمتد الى تاريخ أبعد من ذلك.

ان التحالف الذي ظل قائما بين النظرية النقدية وفلسفة التنوير قد عبرت عنه أعمال ماكس هوركهايمر" و"يورغن هابرماس" وكشف عن التزام النقد بوصفه فكرا معارضا، ومع ذلك ظل مفهوم النقد في مدرسة فرانكفورت يحمل معنيين، تمثلها فلسفة التنوير وإعادة صياغتها، وهذان

المعنيان يكمنان في الفلسفة المثالية الألمانية فمن ناحية نلاحظ أن النقد يعبر عن ضرب من أعمال الفكر في شروط المعرفة الممكنة، أي القدرات والملكات التي توجد لدى الانسان وتمكنه من المعرفة، والتحدث، والتصرف، والنقد على هذا النحو يستمد جذوره من فلسفة كانط KANT والتي ضمنها في كتابه نقد العقل الخالص، كما ينطوي مصطلح النقد معنى آخر جديد، ويتمثل في تأمل ذلك النسق من الضغوط التي يصنعها الانسان ذاته، وهي ضغوط واحباطات قد يخضع لها الفردأو الجماعة، أو حتى البشرية جمعاء، والنقد بهذا المعنى يستمد جذوره من كتابات هيجل وبخاصة كتابه فينومينولوجية العقل، أين طور فكرته عن التأمل التي تتضمن عرض فكرة التحرر من الأوهام القسرية، حيث أن الضغوط تساعد على فتح الفرصة للتطور والنمو خارج إطار الظروف المادية التي تحيط بالموقف الاجتماعي، وذلك وفقا للجدلية الهيغلية، وقد استخدمت مدرسة فرانكفورت المعنيين معا، فمن جهة نجد استخداما للمصطلح للإشارة الى تأمل شروط المعرفة الممكنة، ومن جهة أخرى نجد محاولات للتركيز على كشف الضغوط وألوان القهر التي يتعرض لها الفرد والجماعات.

وعلى الرغم من أن مدرسة فرانكفورت قد تبنت ذلك النموذج للنقد الذي ضمنه ماركس في كتابه نقد الاقتصاد السياسي ، الا أن مواقف هذه المدرسة من الماركسية قد اتسمت بالتباين والتردد بين عدد من الاتجاهات، فهناك اعتقاد بين علماء مدرسة فرانكفورت أن أعمالهم تمثل جزءا من محاولات الصراع السياسي الثوري، وهناك أيضا مراجعة للفكر الماركسي، ثم نلحظ في مرحلة لاحقة نوعا من التحول عن الاهتمام بالبناء التحتي والتركيز بدلا من ذلك على البناء الفوقي الثقافي، وعموما فإن هذه المدرسة خلال كل هذه التحولات لم تستطع أن تنجز تحليلا اقتصاديا يقارن بالتحليل الاقتصادي الذي انطوت عليه المدرسة الماركسية.

كما استمدت مدرسة فرانكفورت بعدها النقدي من مساهمات فرويد، حيث شهدت فكرة الضغوط المفروضة على السلوك الإنساني تطورا حاسما بعد كتابات علماء مدرسة التحليل النفسي، ذلك أن فرويد قد بحث في أسباب الإحباطات والعقد النفسية بطريقة أدت بشكل غير مباشر إلى نوع من التأمل النقدي.

وإذا كانت النظرية النقدية قد انتعشت مع الحركة الفكرية-النقدية التي سادت خلال الفترات الأولى من الثلاثينيات، فإنها قد عرفت دفعة أكبر في حقبة الستينيات وخصوصا مع ظهور الحركات الطلابية في فرنسا، وليس من شك أن النقد الذي طورته هذه المدرسة من خلال ابتكارها لمفاهيم كالثقافة الجماهيرية، والنزعات التسلطية، والمجتمع الأمريكي، قد أحدث تأثيره وكان له صداه في الو.م.أ وخارجها. ولكن الشيئ الذي أعاق الانتشار الواسع والسريع لأفكار هذه المدرسة وهو أنها ظلت لفترة طويلة باللغة الألمانية ولم تترجم إلى اللغة الإنكليزية إلا مؤخرا، فمثلا تم نشر أعمال ماركيوز وهوركهايمر مترجمة على الإنكليزية سنة 1968.

وعلى أية حال فإن الطابع المميز لهذه المدرسة هو كموقفها النقدي الذي لم يقتصر على علم الاجتماع فحسب ، وانما مس كل العلوم الاجتماعية الأخرى وبخاصة الاقتصاد والتاريخ والفلسفة والقانون والأدب زالموسيقى، وذلك تأكيدا منها على كلية التاريخ، بمعنى افتراضها بأن كل هذه العلوم تشكل وحدة ولا تتجزأ. ونظرا لطابعها النقدي من التيارات والمدارس الاجتماعية المختلفة، فقد سميت أحيانا بنظرية المجتمع النقدية.

ولقد وجهت سهام نقدها خصوصا، الى الوضعية الجديدة والتجريبية 'الأمبريقية) والبرغماتية (النفعية) وكذلك الوجودية الألمانية (هايديغر). كما كانت لها حساسية خاصة تجاه جميع النزعات الشمولية (التوتاليتارية TOTALITARISM) كالفاشية والنازية (ويتدعم هذا الموقف أكثر عندما نعلم أن أغلب رواد هذه المدرسة ينتمون إلى أسر يهودية بورجوازية عانت كثيرا من النازية)، وكذلك الستالينية والنزعات الفردية- الكلية المشابهة، كما لم ينج من نقدها المجتمع الديمقراطي الغربي لأنه لا يؤمن الحرية الحقيقة للفرد ويؤدي حتما الى أشكال من الفاشية والنازية، ولعل من بين أكثر الظواهر الاجتماعية التي أثارت انتقاد الدرسة نجد ظاهرة البيروقراطية التي تقضي على الفردية، وذلك إلى جانب الثقافة الجماهيرية التي أدت إلى تقهقر الثقافة وتسطيحها، وبخاصة الفن والأدب (زكريا، 1989، 286).

القضايا الأساسية عند مدرسة فرانكفورت:

على الرغم من ثراء وتعدد الاسهامات الفكرية التي قدمها ممثلو المدرسة النقدية أو مدرسة فرانكفورت، بحيث سصعب الإلمام بها في مبادرات محدودة، فإننا سنحاول حصر أهم الاتجاهات الرئيسية لمدرسة فرانكفورت في المحاور التالية:

أولا: النظرية النقدية عند هوركهايمر:

تعد المقالات التي نشرها هوركهايمر تحت عنوان "النظرية' مدخلا ملائما لفهم هذه المدرسة، حيث تضمنت عرضا للخلفية الفكرية والفلسفية التي يمكن الاعتماد عليها في فهمالحركات الراديكالية والنقدية مثل حركة اليسار الجديدNEW LEFT وغيرها، وتتلخص مهمة النظرية النقدية عند هوركهايمر في اختراق عالم الأشياء، بحيث يمكن بعد ذلك الكشف عن العلاقات الكامنة خلفها من الأشخاص أعضاء المجتمع وإذن، فالنظرية النقدية لا تأخذ ما هو ظاهر من أنظمة وعلاقات، وانما تسعى إلى اكتشاف الخلفية الكامنة، وأداتها في ذلك هي نقد هذه القشرة الخارجية، فإذا كان المظهر الخارجي للنظام الاجتماعي الرأسمالي –مثلا- يبدو على أنه يمنح فرصا عادلة للتبادل والربح، فإن مهمة النظرية النقدية هي أن تكشف عن "قاع' هذا النظام، الذي لا ينطوي على ضروب من اللامساواة؛ وإذن فالفلسفة النقدية في رأي هوركهايمر لها وظيفة اجتماعية هامة هي نقد النظم والأوضاع الاجتماعية القائمة، ولعل ذلك هو ما يلقي الضوء على نقاط الضعف الرئيسية في الفكر الوضعي.

والهدف الأساسي للنظرية النقدية للمجتمع هو أن تسهم في تحقيق نوع من إعادة بناء المجتمع، بحيث يصبح أكثر إشباعا، وخاليا من كل أنواع الاستغلال في العلاقات بين الناس، ثم هي عملية تضع الانسان على رأس كل نشاط اجتماعي، وتجعله محور تطور المجتمع البشري. فهو الكائن الواعي بذاته والقادر على إدارة أموره بنفسه، إنه موضوع الواقع الاجتماعي وجوهره.

ولقد أقام هوركهايمر تفرقة حاسمة بين نموذجين باعتبارهما يمثلان اسلوبين لاكتساب المعرفة، فالنموذج الأول هو ذاك الذي ارتبط بالمناهج الوضعية وبمحاولة احتذاء نمط العلوم الطبيعية... والهدف النهائي لهذا اللون من البحوث هو إخضاع ظواهر العالم لسيطرة الانسان بما ينتجه من أدوات تكنولوجية ومهارات بيروقراطية. أما مسألة الأصول الاجتماعية للمشكلات العلمية

والمواقف الفعلية التي يستخدم فيها العلم، والأغراض التي يخدمها العلم، فإنها كلها تمثل ظروفا خارجة عن العلم ذاته (محمد علي محمد، 1983، 554).

أما النظرية النقدية فهي على العكس من ذلك تجعل من الانسان موضوعا وتنظر إليه بوصفه صانعا لظروفه التاريخية وأسلوب حياته على وجه العموم...انها تسعى إلى إعادة صياغة مهمة البحث الاجتماعي، وما يرتبط به من أدوار يقوم بها عالم الاجتماع إزاء الواقع الاجتماعي الذي يقوم بدراسته، فمن الملاحظ **أولا** أن هناك مشكلات منهجية وموضوعية عديدة ترتبت عن التصور الذي ساد في المجتمع البورجوازي والذي ينهض على أن البحث قضية منفصلة عن ذات الباحث القائم ببحثه، وهو التصور الوضعي الذي يفصل بين الباحث وموضوع بحثه، ويستبدل هوركهايمر هذه الفكرة بأن الباحث لا بد أن يندمج في موضوع بحثه، فمن خلال هذا الاندماج فقط يتمكن الباحث من النفاذ إلى لب الظاهرة التي يقوم بدراستها، ويكتسب بحثه طابعا نقديا وإنسانيا. ومن الملاحظ **ثانيا** أن البحث النقدي الذي يضطلع فيه الباحث الاجتماعي بدور إيجابي أساسا، وليس دورا محايدا كما تزعمه الوضعية، هو بحث يهدف أساسا إلى تغيير الواقع، وتحقيق مزيد من التحرر الإنساني. ومن ثم يتحول النقد إلى قوة مادية ثورية يتجسد في وعي الانسان وإدراكه لمدى قوته وتأثيرها في إحداث التغيير.

ثانيا: علم الاجتماع والبحث الاجتماعي عند أدورنو:

نقطة البداية عند أدورنو تمثلت في نقده للنظرية الوضعية التقليدية، حيث جاء نقده متطابقا لما قدمه هوركهايمر في هذا الصدد، ومنطلقا من نفس مسلماته التي صاغها، والتي أهمها ضرورة أن يسعى العلم الاجتماعي النقدي إلى تغيير الواقع، وذلك أن أدورنو يعتقد أننا إذا جعلنا نقطة البدء هي الوقائع التي تتحدث عن نفسها (مثلما تعتقد الوضعية)فإن معنى ذلك أننا قد افترضنا قبول المجتمع كما هو عليه، أي أننا رفعنا هذا الواقع فوق مستوى الشك، وهذا نوع من العلم المحافظ الذي يسعى الى الإبقاء على الأوضاع القائمة STATUS QUO. أما النظرية النقدية فإنها تنطوي على نقد هذات الواقع، إذ هي لا تقيم أية فواصل أو حواجز بين الباحث وبين من يقوم ببحثه، ففي هذا السياق يناقش أدورنو محاولات تشبيه علم الاجتماع بالعلوم الطبيعية، ويؤكد بأن الفروق بين الطبيعة والانسان تحتم وجود

فروق بين منهجية العلوم التي تدرس كل منهما، فالعلوم الطبيعية هي علوم دقيقة، وذلك لأن الطبيعة منتظمة ومتسقة على نحو يسمح لهذا المستوى من الدقة؛ أما المجتمع فانه ليس على هذا القدر من النموذجي من الاتساق ، انه مليئ بالتناقضات ، فهو ينطوي على ما هو عقلي وما هو غير عقلي، على الانتظام وعدم الانتظام... لهذا لو تشبهت بالعلوم الطبيعية فإنها حتما سوف تعجز عن فهم الطبيعة النوعية المتميزة للمجتمع.

ثالثا: المجتمع العقلاني عند هابرماس:

عرفت النظرية النقدية خلال حقبة الستينيات محاولات للتعديل وإعادة الصياغة، ولعل محاولات "هابرماس" هي أهمها على الاطلاق، والقراءة المتأنية لأعمال هذا الأخير تكشف عن عدم قبوله للنظرية الماركسية كنظرية اجتماعية. ولقد استند في ذلك على عدة عوامل، من بينها تلك التغيرات الأساسية التي طرأت على المجتمع البورجوازي ، وضعف الرغبة في تحقيق التحرر الاقتصادي، وتحلل الطبقة البلوريتارية وأخيرا الشلل الذي طرأ على الماركسية نتيجة لتبني الاتحاد السوفياتي سابقا لها، وعندما ناقش "هابرماس" العوامل البنائية الأساسية المؤثرة على المجتمع البوجوازي أبدى اهتماما خاصا ببعدين أساسيين هما: اتساع نطاق الإدارة المركزية، وسيطرة النزعة العلمية على شؤون الحياة اليومية. وبذلك نلمس ابتعادا ملحوظا عن التصورات الماركسية الكلاسيكية، ذلك ان "هابرماس" قد منح العوامل الاقتصادية دورا محدودا في تحديد مسار المجتمع (عكس ماركس)، مستبدلا إياها بالعوامل السياسية التي اعتقد أنها قد أصبحت حاسمة في إدارة شؤون المجتمع الحديث، ومعنى ذلك أن السياسة لم تعد تعتمد اعتمادا كبيرا على الاقتصاد. كما حاول "هابرماس" توضيح أن مستوى المعيشة في الدول الصناعية الغربية قد وصل حدا من الارتفاع دفع قطاعات عريضة من السكان الى التخلي عن فكرة تحرير المجتمع من الاستغلال الاقتصادي، ومعنى ذلك أن الاغتراب الاقتصادي لم يعد هدفا للنضال السياسي الذي يجب أن تمارسه البروليتاريا، ذلك أن هذا الاغتراب الاقتصادي يظل قائما في ظل اغتراب ثقافي أوسع نطاقا. وفي هذا السياق لا غرابة أن نجد الكثير من أعمال مدرسة فرانكفورت قد ركزت على الثقافة، حيث لم يعد اتباع هذه المدرسة يرون أن المجتمع تمزقه تناقضاته الاقتصادية والبنيوية، ولذلك أصبحت المسألة الرئيسية

في اعتقادهم هي دمج الأفراد بالمجتمع دمجا ناجحا، وصارت الثقافة التي تعني السبل التي تتبعها المجتمعات والأفراد لوضع تصور عن العالم، هي العامل الوحيد لتحقيق هذا الاندماج، ولعل أوضح مناقشة لهذه الفكرة قد عبر عنها "ماركوز" في مؤلفه الموسوم: " الانسان ذو البعد الواحد ONE-DIMENSIONAL MAN (1964) كما أولاه عناية تحليلية "أدورنو" تحت ما أسماه صناعة الثقافة أو الثقافة المصنعة CULTURE INDUSTRY في كتابه "جدل التنوير (1972)" والمقصود من هذا المفهوم هو تلك الثقافة المصطنعة التي ينتجها انتاجا، وهي ثقافة زائفة تقف في مقابل الثقافة الشعبية الحقيقية الناتجة تلقائيا من تفاعل البشر ببعضهم البعض في اطار المجتمع... وتدور فكرة "أدورنو" عموما على أن الكائن البشري له قدرات وإمكانيات معينة سلبت منه في المجتمع الحديث. ولقد بات من المتفق عليه اعتبار أعلى أشكال الثقافة المتمثلة في الفن والأدب والموسيقى، نتاجا لقدراتنا البشرية وفي نفس الوقت نقدا لمجتمعنا الحالي، على الرغم من أن عمل هذه الوظيفة يتغير من حقبة تاريخية إلى أخرى. ففي هذا السياق نجد أن منظري مدرسة فرانكفورت لا يقدمون تفسيرات اقتصادية للأعمال الفنية بل يركزون بدلا من ذلك على أشكال تلك الأعمال (كريب، 1999، 322).

والواقع أن مبررات رفض "هابرماس" للماركسية ليست جديدة، وإنما قد نطالعها في معظم الكتابات التي تناولت مدى ملاءمة التفسير الماركسي لفهم واقع المجتمعات الصناعية الحديثة ابتداء من كتابات " **دارندورف DAHERNDIRF** " في أواخر خمسينيات هذا القرن حتى كتابات " **أنطوني غيدنز GIDDENS** " في منتصف السبعينيات، ومن خلال مشروعه الفكري توصل "هابرماس" إلى تفرقته الشهيرة بين ثلاثة أنماط من المعرفة الإنسانية، والتي يحصرها في العلوم الأمبريقية- التحليلية، والعلوم التاريخية التفسيرية، والعلوم النقدية، وذلك في كتابة " النظرية والممارسة" (1974) ، ومن خلال هذه التفرقة تمكن "هابرماس" من التمييز بين العلوم الوضعية التي تسعى الى الوصول الى أقصى درجات التحكم التكنولوجي والعلوم التفسيرية التي تؤكد أهمية الفهم والعلاقات الذاتية، وأخيرا العلوم النقدية الموجهة نحو تحرير الانسان من الحتمية الطبيعية والتاريخية من خلال عملية التنوير النظري والعملي. والعلوم النقدية هي ببساطة على الاجتماع النقدي الذي

يتمثل هدفه في إمكانية التأمل وإعادة البناء على نحو يمكن الأفراد من معرفة أنفسهم والالمام بالمواقف والظروف المحيطة بهم (الحسيني، 1985، 240-243).

رابعا: العقل والثورة عند ماركوز:

يعتبر "ماركوز" من أهم ممثلي مدرسة فرانكفورت، حيث تمثل مؤلفاته الرئيسية: فلسفة النفي، العقل والثورة والانسان ذو البعد الواحد، معالجة منظمة للفكر الفلسفي عند كل من هيجل وماركس مع محاولته تطبيق هذا الفكر والإفادة منه في تحليل أبنية المجتمع الصناعي المعاصر وتوضيح الأزمات الأيديولوجية المرتبطة به. والجدير بالذكر أن اسهام "ماركوز" يقع على الحدود التي تربط النظري بالفكر العملي. ولهذا فقد جاءت التساؤلات الحاسمة التي اهتم بها تدور حول الدور الثوري للعقل في حياة الانسان، والأبعاد والحدود الخاصة بهذا الدور/ وهنا نلاحظ أن العقل بدا يلعب دورا جديدا ومخالفا للدور المحافظ الذي ظل مرتبطا به خلال تاريخ الفلسفة الغربية، ويحتوي مفهوم العقل عند "ماركوز" على مفهوم الحرية ولهذا كان اهتمام النظرية النقدية الأساسي متمركزا في محاولة تحرير البشرية.

وفي هذا السياق يؤكد على أنه بالرغم من التطورات الهائلة التي حققتها المجتمعات الرسمالية الا أن السمة الغالبة على هذه المجتمعات هي السيطرة والسيادة التي يمارسها الانسان على أخيه الإنسان، وهي تعبير وتجسيد في الوقت ذاته للسيطرة التكنولوجية وهيمنة النظام العقلي الرشيد على السلوك الإنساني، وهذا بدوره يعكس نوعا من السيطرة السياسية الضمنية. وهكذا تكون العقلانية التكنولوجية معبرة عن منطق السيطرة على الانسان، ومدعمة للاستغلال والصراع الطبقي، ولعل ذلك هو ما يفسر سلوك الانسان ذو البعد الواحد الذي انخرط في هذا النظام بحيث أصبح جزءا لا ينفصل عنه (محمد علي محمد، 1987، 561-564).

ونخلص الى القول بأن الفكر النقدي قد تأصل (كما سبقت الاشارة) في المجتمع الغربي عموما والامريكي خصوصا، "نظرا للتناقضات الأساسية التي ترسخت لافي داخل أبنية هذه المجتمعات وبخاصة أزمة التناقض على المستويين الاقتصادي والسياسي. فلا غرابة ان تكون أزمة المجتمع الرأسمالي الغربي أزمة شاملة، لكنها تعبر عن تناقض على المستوى الفكري العقلاني، فالأزمة

الاقتصادية تتعايش معها أزمة سياسية لكنها أزمة من نوع متميز في ظل حدة التناقض الطبقي في المجتمع الرأسمالي حيث نجد ظاهرة "تنويع الوعي التاريخي " المنتشرة بين الفئات الاجتماعية العاملة والدنيان بالإضافة الى أنه في ظل شعارات مثل الحرية والمساواة والعدل، نجد هيمنة وسيطرة الدولة الرأسمالية، وربما لهذا السبب وغيره ظهر الفكر الراديكالي الحديث المتمثل فيما يسمى مدرسة فرانكفورت، مركزا أساسا على غياب الوعي التاريخي وأزمة التنظير في ظل تناقضات الواقع وأزماته. ويلاحظ على هذه الحركة الفكرية النقدية التي ظهرت في أحشاء المجتمع المتناقض، أنها بدأت بنقد العقل لتنتهي من حيث بدأت، وربما لهذا السبب أيضا لم يكن التخصص السوسيولوجي مطروحا على الساحة لكي يبحث في أزمة النظام (كما فعلت الوضعية مثلا) ذلك النظام الذي يحوي بداخله جوانب متناقضة لكنها متعايشة مع بعضها البعض. هكذا وظهرت تخصصات شتى تجمع ما بين الفلسفة وعلم النفس والاقتصاد والقانون والفن والأدب. ومن ثم فإن الحركة النقدية التي بدأت تسود منذ الربع الأول من القرن العشرين تمثل حركة اجتماعية عامة كانت تبحث في أزمة العلاقة بين الوعي والوجود، بين النظرية والممارسة... وعليه فلا جدال من أن القضايا التي قدمها رجال الفكر النقدي الحديث تعد من أهم المشكلات التي عانى منها المجتمع الغربي، حيث التناقض القائم في النظام الرأسمالي الذي لم يستطع الخروج من الأزمة الحديثة وهي أزمة النظام السياسي. فقد شهدت المجتمعات الرأسمالية نظما فاشية ونازية كما شهدت مجتمعات أخرى نظما اشتراكية وديكتاتورية.

ويبقى أن نسجل في الأخير، أن النظرية النقدية التي تحاول "إعادة قراءة التراث السوسيولوجي من زاوية نقدية متطورة تعد من أهم الأمور التي تبلورت في ضوء حركة المجتمع وتغيراته، ولم تكن الاتجاهات التقليدية (كالوضعية مثلا) هي فقط محور التحليلات النقدية وهدفها، بل أن الفكر الماركسي كان أيضا موضوعا للنقد والتحليل من جانب رواد الاتجاهات النقدية المعاصرة عموما. ولقد كان واضحا أهمية التحليل البنائي التاريخي في علم الاجتماع النقدين وأصبح الدور غير الفعال الذي تلعبه النظرية التقليدية في فهم قضايا الواقع الحقيقي يمثل –أزمة في العلم الاجتماعي. ولذلك كان التأكيد على تناقضات الواقع وليس على تكامله هو مثار النقد الموجه

للنظرية التقليدية، إذ يجب فهم الظاهرة الاجتماعية في ضوء السياق البنائي التاريخي للمجتمع البشري إذا كان هذا ليس بالجديد في الفكر الاجتماعي، فقد يكون الجديد فقط هو الدعوة الى "تثوير" (من الثورة) علم الاجتماع ضد النظرية التقليدية المحافظة.